

تتميز صيغة التقرير المستخدمة في هذا الموضوع بتسليط الضوء على ثلاث وظائف رئيسية تتعلق بالتعبير والتصوير والتحريض. ويتم استخدام هذه الوظائف كنقطة انطلاق لتحليلنا. تبرز الوظيفة التعبيرية بمظاهر عدة، من بينها تعبير أبو القاسم الشابي عن حبه العميق لوطنه تونس، وتعلقه به بطريقة لا تختلف عن تعلق العاشق بحبيبته. فعلاقته بوطنه تتجاوز الاعتراف بمجرد وجوده فيه، بل يصل إلى حد الوجود معه، كما يعبر عن ذلك في قصيدته الشهيرة "تونس الجميلة": أنا يا تونس الجميلة في لجج + ج الهوى قد سبحت أيّ سباحة يتيح لنا هذا المعجم الغزلي الدخول إلى عالمٍ فريدٍ من المشاعر والأحاسيس الراقية التي جعلت من الشابي شاعراً مرموقاً في تاريخ الشعر العربي. يرى الناقد التونسي عبد السلام المسدي أن الشعور الوطني عند الشابي يصل إلى حد الذوبان والانصهار في الرمز الوطني الأوفى، وهو لفظ تونس، ومن هذا الشعور يتناغم الشاعر مع رمز عاطفته في علاقات من الحب والإخلاص والنضال والفداء. وهذا يعكس الوظائف الثلاث التي حل عليها المعطى، وهي التعبيرية والتصويرية والتحريضية، التي سنحللها بدقة خلال تحليلنا. غير أن هذا الملفوظ النفسي يتجاوز شخص الشابي إلى أمير الشعراء أحمد شوقي الذي عبر عن هيامه بوطنه وشوقه إليه شوق أهل المشيب إلى الشباب فجعله حلماً يؤوب إليه بعد طول غياب وإبعاد، لما يشعر به من قداسة الوطن ونفاسه في نفسه، فصور العودة إليها استعادة للشباب والحياة المنشودة تألقاً وفاعلية، فقال: ويا وطني لقيتك بعد يأس + كأني قد لقيت بك الشباب وما كان لهذا الإحساس ليتوقف عند مرتبة العشق الساذج الذي يتلذذ بالأخذ ومجرد القرب من الحبيب بقدر ما ارتقى إلى مرتبة الاستعداد للتضحية بالدماء والنفس، وتلك درجة من العشق الناضج والعتاء السخي لا يظفر بها إلا العشاق الصادقون، وقد كان أبو القاسم الشابي من هؤلاء، إذ استعار في شعره صورة العاشق العذري الذي يتلف روحه في سبيل حبيبته وذلك في قوله: لا أبالي وإن أريق دمائي + فدماء العشاق دوماً مباحه لقد كان الشعر الوطني على هذا النحو وسيلة فنية اتخذها الشعراء مسلكاً إلى النضال لا يقل خطورة وأثراً في النفوس عن الفعل النضالي المباشر، إذ كانت المشاعر الوطنية منغرسه في أتون القلوب المتوهجة عشقا، فالوطنية بذلك سواء عند الشابي أو شوقي أو درويش إحساس مقدس لا تضاهيه أي قيمة آخر فهو الذي يستمد نفاسه من مشاعر الحب وقداسته من مبادئ الدين ووجاهته من القيم الإنسانية عامة. فكيف رسمت صورة المستعمر والمستعمر معا؟ لقد انكشفت للمستعمر في قصائد الشعراء صورة دموية تشف عن وجه عدواني يحمل من البشاعة والفضاعة ما يثير الإشمئزاز في النفوس الحرة فتهب هبة الحق لنصرة المظلوم والانتقام من الظالم ومن أبلغ الصور التي رسمها الشابي في هذا السياق قوله واصفا طغاة العالم: ألا أيها الظالم المستبد + حبيب الظلام عدو الحياة سخرت بأنات شعب ضعيف + وكفك مخضوبة من دماء فكانت هذه الصورة شاهداً على أحوال المستعمرين في كل زمان ومكان، استخفافاً بمشاعر الشعوب الضعيفة وهدرًا لدماء الأبرياء، ولقد عاش الوطنيون نتيجة هذا الوضع تجربة السجن والنفي والحصار الذي يصادر حرية الفرد والجماعة، وهو ما صورته محمود درويش خل تجربة الاعتقال في سجون الاحتلال الصهيوني، حيث يقول: سدوا عليّ النور في زنزانه + فتوهجت في القلب شمس مشاعل. لقد كان الاستعمار في كل الأحوال كيانا استبدادياً إجرامياً يسوس البلاد بالعسف والقهر لا يسلم من أذاه أحد صغيراً أو كبيراً، حتى الحيوان والجماد لا بد أن ينال حظه منه من الدمار والخراب والقتل. يقول أحمد شوقي مصوراً الاستعمار الإنكليزي بمصر: خمسون عاماً في البلاد يسوسها + بالعنف عاماً والهوادة عاماً. إن هذه الصور هي صنيعة كيانه استعماري قد تشرب روح العدوان والغدر على الضعفاء فما عاد يكثر بغير مصالحه وحاجاته من النهب والاستغلال لخيرات البلاد وجهود العباد. فما هو موقف الشعراء الوطنيين من هذا الواقع؟ هل اكتفوا بتصويره والتعبير عن حبه للارض أم انبروا للدفاع عن العرض والتحريض على ذلك؟ لم يكن الشاعر الوطني في شعره ذاتاً سلبية تميل إلى القول دون الفعل، بل كان متصدراً الصفوف الأولى لبث روح المقاومة والتضحية في النفوس، فآثر الشعراء أن يحرضوا على الثورة بالقلم وهم واعون تمام الوعي بخطورة دورهم، فلطالما تغنى الشابي بضرورة التسليح بالإرادة والعزيمة والتحلي بروح الفعل لا الانفعال، إذ لا يستجيب القدر إلا لمن تحلى بحب الكرامة والعزة وشهامة النفس لا ذلك المتخاذل والمتكاسل عن نصرة بلاده ونفسه، يقول الشابي: ألا انهض وسر في سبيل الحياة + فمن نام لم تنتظره الحياة ولم يقف الشاعر عند مرتبة التوجه إلى الشعب بل توجه في الوقت نفسه إلى المستعمر متوعداً إياه بالويل والحسرة لما كسبت يمينه من جرائم وفضاعات